

ألف ليلة وليلة

حكاية بدور بنت الجوهرى مع جبير بن عمير الشيبانى

حكاية بدور بنت الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ليلة من الليالي وتعذر عليه النوم ولم يزل ينقلب من جنب إلى جنب لشدة أرقه فلما أعياه ذلك أحضر مسروراً وقال: يا مسرور انظر إلى من يسليني على هذا الأرق فقال له: يا مولاي هل لك أن تدخل البستان الذي في الدار وتتفرج على ما فيه من الأزهار وتتنظر إلى الكواكب وحسن ترصيعها والقمر بينها مشرف على الماء قال له: يا مسرور إن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك قال: يا مولاي إن في قصرك ثلاثمائة سرية لكل سرية مقصورة فأنت تأمر كل واحدة منهم أن تختلي بنفسها في مقصورتها وتدور أنت تتفرج عليهن وهن لا يدريين قال: يا مسرور القصر قصري والجواري ملكي غير أن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك، قال: يا مولاي مر العلماء والحكماء والشعراء أم يحضروا بين يديك ويفيضوا في المباحث وينشدون الأشعار ويقصون عليك الأشعار ويقصون عليك الحكايات والأخبار قال: ما تهفو نفسي إلى شيء من ذلك قال: يا مولاي مر العلماء والندماء والظرفاء أن يحضروا بين يديك ويتحفوك بغريب النكات قال: يا مسرور إن نفسي ما تهفو إلى شيء من ذلك قال: يا مولاي فاضرب عنقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والستين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن مسرور قال للخليفة: يا مولاي فاضرب عنقي لعله يزيل أرقك ويذهب القلق عنك، فضحك الرشيد وقال: يا مسرور انظر من بالباب من الندماء فخرج مسرور ثم عاد وقال: يا مولاي الذي على الباب علي بن منصور الخليفة الدمشقي قال علي به فذهب وأتى به، فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين فرد عليه السلام وقال: يا ابن منصور حدثني بشيء من أخبارك. فقال: يا أمير المؤمنين هل أحدثك بشيء رأيته عياناً أو شيء سمعت به فقال أمير المؤمنين: إن كنت عاينت شيئاً غريباً فحدثنا به فإنه ليس الخبر كالعيان قال: يا أمير المؤمنين أجل لي سمعك وقلبك قال: يا ابن منصور هاأنا سامع لك بأذني ناظر لك بعيني مصغ لك بقلبي قال: يا أمير المؤمنين إن لي كل سنة رسماً على محمد بن سليمان الهاشمي سلطان البصرة فمضيت إليه على عاداتي فلما وصلت إليه وجدته مهيباً للركوب إلى الصيد والقنص فسلمت عليه وسلم علي وقال لي: يا ابن منصور اركب معنا إلى الصيد فقلت له: يا مولاي ما لي قدرة على الركوب فأجلسني في دار الضيافة وأوصى علي الحجاب والنواب ففعلوا. ثم توجه إلى الصيد فأكرمني غاية الإكرام وضيّفوني أحسن الضيافة فقلت في نفسي: يا لله العجب إن لي مدة أقدم من بغداد إلى البصرة ولم أعرف أن في البصرة سوى من القصر إلى البستان ومتى يكون لي فرصة أنتهزها في الفرجة على جهات البصرة مثل هذه النوبة فأنأ أقوم هذه الساعة وأتمشى وحدي لأتفرج وينهضم عني الأكل. فلبست ثيابي وتمشيت في جانب البصرة ومعلومك يا أمير المؤمنين أن فيها سبعين درباً طول كل درب سبعين فرسخاً بالعراقي فتهت في أزقتها ولحقتي العطش، فبينما أنا ماش يا أمير المؤمنين وإذا بباب كبير له حلقتان من النحاس الأصفر ومرخي عليه ستور من الديباج الأحمر وفي جانبه مصطبتان وفوقه مكعب لدوالي العنب وقد ظللت على ذلك الباب فوقفت أتفرج على هذا المكان، فبينما أنا واقف سمعت صوت أنين ناشيء عن قلب حزين يقلب النغمات وينشد هذه الأبيات:

جسمي غدا منزل الأسقام والمحن	من أجل ظبي بعيد الدار والوطن
فيا نسيمي قد هيجتماه شجني	بأله ربكما عرجا عن سكني
وعاتباه لعل العتب يعطفه	
وحسن القول إذ يصغي لقولكما	واستدرجا خبر العشاق بينكما
وأوليائي جميلاً من صنيعكما	وعرضا بي وقولاً في حديثكما
ما بال عبد بالهجران تتلفه	

فقلت في نفسي: إن كان صاحب النغمة مليحاً فقد جمع بين الملاحه وحسن الصوت ثم دنوت من الباب وجعلت أرفع الستر قليلاً قليلاً وإذا بجارية بيضاء كأنها البدر في ليلة أربعة عشر بحاجبين مقرونين وجفنين ناعسين ونهدين كرمانيين رقيقتان أقحونتان وفم كأنه خاتم سليمان ونضيد أسنان يلعب بعقل الناظم والنائر كما قال فيه الشاعر:

يا در ثغر الحبيب من نظمك	وأودع الراح والأفاح فمك
ومن أعار الصباح مبتسمك	ومن بقفل العقيق قد ختمك
أصبح من قد رأك من طرب	بتيه عجباً فكيف من لثمك

وبالجملة قد حازت أنواع الجمال وصارت فتنة للنساء والرجال لا يشبع من رؤية حسننها الناظر وهي كما قال فيها الشاعر:

إن أقبلت قتلت وإن هي أدبرت
شمسية بدرية لكنها
جعلت جميع الناس من عشاقها
ليس الجفا والصد من أخلاقها

فبينما أنا انظر إليها من خلال الستارة وإذا هي التفتت فرأيتني واقفاً على الباب فقالت لجاريتها: انظري من الباب فقامت الجارية وأتت إلي وقالت: يا شيخ أليس عندك حياء وعيب فقلت لها: يا سيدتي أما الشيب فقد عرفناه وأما العيب فما أظن أني أتيت بعيب، فقالت سيدتها: وأي عيب أكثر من تهجمك على دار غيرك ونظرك إلى حريم غير حريمك، فقلت لها: يا سيدتي لي عذر في ذلك فقالت: وما عذرك فقلت لها: إنني رجل غريب عطشان وقد قتلني العطش فقالت قبلنا عذرك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت: قبلنا عذرك ثم نادى بعض جواريتها وقالت: يا لطف اسقيه شربة بالكوز الذهب فجاءتني بكوز من الذهب الأحمر مرصع بالذو والجوهر ملآن ماء ممزوج بالمسك الأذفر وهو مغطى بمنديل من الحرير الأخضر فجعلت أشرب وأطيل في شربي وأنا سارق النظر إليها حتى طال وقوفي ثم رددت الكوز على الجارية ووقفت فقالت: يا شيخ امض إلى حال سبيلك فقلت لها: يا سيدتي أنا مشغول الفكر فقالت: فيم؟ فقلت: في تقلب الزمان وتصرف الحدثنان، قالت: يحق لك لأن الزمان ذو عجائب ولكن ما الذي رأيته من عجائبه حتى تفكر فيه فقلت لها: أفكر في صاحب هذا الدار لأنه كان صديقي في حال حياته فقالت لي: ما اسمه فقلت: محمد بن علي الجوهري وكان ذا مال جزيل فهل خلف أولاداً فقالت: نعم بنتاً يقال لها: بدور وقد ورثت أمواله جميعها فقلت لها: كأنك ابنته قالت: نعم وضحكت ثم قالت: يا شيخ قد أطلت الخطاب فاذهب إلى حال سبيلك فقلت لها: لا بد من الذهاب ولكني أرى محاسنك متغيرة فأخبريني بشأنك لعل الله يجعل لك على يدي فرجاً فقالت لي: يا شيخ إن كنت من أهل الأسرار كشفنا لك سرنا فأخبرني من أنت حتى أعرفك هل أنت محل للسر أولاً، فقد قال الشاعر:

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة
قد صنت سري في بيت له غلق
والسر عند خيار الناس مكتوم
وقد ضاع مفتاحه والبيت مختوم

فقلت لها: يا سيدتي إن كان قصدك أن تعلمي من أنا فأنا علي بن منصور والخليع الدمشقي نديم أمير المؤمنين هارون الرشيد، فلما سمعت باسمي نزلت من على كرسيها وسلمت علي وقالت لي: مرحباً بك يا ابن منصور والآن أخبرك بحالي وأستأمنك على سري: أنا عاشقة مفارقة فقلت: يا سيدتي أنت مليحة ولا تعشقين إلا كل مليح فمن الذي تعشيقينه قالت: أعشق جبير بن عمير الشيباني أمير بني شيبان وقد وصفت لي شاباً لم يكن بالبصرة أحسن منه فقلت لها: يا سيدتي هل جرى بينكما مواصلة أو مراسلة؟ قالت: نعم إلا أنه قد عشنا باللسان لا بالقلب والجنان لأنه لم يوف بوعده ولم يحافظ لي على عهد فقلت لها: يا سيدتي وما سبب الفراق بينكما قالت: سببه إنني كنت يوماً جالسة وجاريتي هذه تسرح شعري فلما فرغت من تسريحه جدلت ذوائبي فأعجبها حسني وجمالي فطأطأت علي وقبلت خدي وكان في ذلك الوقت داخلأ على غفلة فرأى ذلك فلما رأى الجارية تقبل خدي ولى من وقته غضبان عازماً على دوام البين وأنشدت هذين البيتين:

إذا كان لي فيمن أحب مشارك
فلا خير في المعشوق إن كان في الهوى
تركت الذي أهوى وعشت وحيدا
لغير الذي يرضى المحب مزيدا

ومن حين ولى معرضاً إلى الآن لم يأتنا من عنده كتاب ولا جواب يا ابن منصور فقلت لها: فما تريدني قالت: أريد أن أرسل إليه معك كتاباً فإن أتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار وإن لم تأتني بجوابه فلك حق مشيك مائة دينار فقلت لها: افعلي ما بدا لك فقالت: سمعاً وطاعة ثم نادى بعض جواريتها وقالت: أتيني بدواة وقرطاس فأنتها بدواة وقرطاس فكتبت هذه الأبيات:

حبيبي ما هذا التباعد والقتلا
وما لك بالهجران عني معرضاً
فأين التعاضي بيننا والتعطف
نعم نقل الواشون عني باطلاً
فما وجهك الوجه الذي كنت أعرف
فان تك قد صدقتهم في حديثهم
فلمت لما قالوا فزادوا وأسرفوا
فحاشاك من هذا ورأيك أعرف

فإنك تدري ما يقال وتنصف	بعيشك قل لي ما الذي قد سمعت
فلقول تأويل وللقول مصرف	فإن كان قولاً صح أني قلته
فقد بدل التوراة قوم وحرثوا	وهب أنه قول من الله منزل
فها عند يعقوب تلوم يوسف	وبالزور قد قيل في الناس قبلنا
يكون لنا يوم عظيم موقف	وها أنا والواشي وأنت جميعاً

ثم بعد ذلك ختمت الكتاب وناولتني إياه فأخذته ومضيت إلى دار جبير بن عمير الشيباني فوجدته في الصيد فجلست أنتظره فبينما أنا جالس وإذا به قد أقبل من الصيد فلما رأيته يا أمير المؤمنين على فرسه ذهل عقلي من حسنه وجماله فالتفت فرأني جالساً بباب داره فلما رأني نزل عن جواده وأتى إلى واعتقتي وسلم علي فخبيل لي أني اعتنقت الدنيا وما فيها ثم دخل بي إلى داره وأجلسني على فراشه وأمر بتقديم مائدة من الخولنج الخراساني وقوائمه من الذهب عليها جميع الأطعمة وأنواع اللحم من مقلي ومشوي وما أشبه ذلك، فلما جلست على المائدة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الحادية والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن علي بن منصور قال لما جلست على مائدة جبير بن عمير الشيباني قال: مد يدك إلى طعامنا واجبر خاطرنا بأكل زادنا فقلت له: والله ما أكل من طعامك لقمة واحدة حتى تقضي حاجتي قال: فما حاجتك؟ فأخرجت إليه الكتاب فلما قرأه وفهم ما فيه مزقه ورماه في الأرض وقال لي: يا ابن منصور مهما كان ذلك من الحوائج قضيناه إلا هذه الحاجة التي تتعلق بصاحبة هذا الكتاب فإن كتابها ليس له عندنا جواب فقامت من عنده غضبان فتعلق بأذيالي وقال: يا ابن منصور أنا أخبرك بالذي قالته لك وإن لم أكن حاضراً معكما فقلت: ما الذي قالته؟ قال: أما قالت لك صاحبة هذا الكتاب أن أتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار وإن لم تأتني بجوابه فلك حق مشيتك مائة دينار قلت: نعم قال: اجلس عندي اليوم وكل واشرب وتلذذ واظرب وخذ لك خمسمائة دينار فجلست عنده وأكلت وشربت وتلذذت وطربت وسامرت ثم قلت: يا سيدي ما في دارك سماع قال لي: إن لنا مدة نشرب من غير سماع ثم نادى بعض جواريه وقال: يا شجرة الدر فأجابته جارية من مقصورتها ومعها عود من صنع الهنود ملفوف في كيس من الإبريسم ثم جاءت وجلست ووضعته في حجرها وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأطربت بالنغمات وأشدت هذه الأبيات:

لم يدر وصل حبيبه من هجره	من لم يذوق حلو الهوى مع مره
لم يدر سهل طريقه من وعره	وكذاك من قد حاد عن سنن الهوى
حتى بلّيت بحلوه وبمره	مازلت معترضاً على أهل الهوى
وخضعت فيه لعبده ولحره	شربت كأس مراره متجرعاً
ورشفت حلو رضابه من ثغره	وكم ليلة بات الحبيب منادمي
قد جاء وقت عشائه مع فجره	ما كان أقصر عمر ليل وصالنا
والآن قد أوفى الزمان بنذره	نذر الزمان بأن يفرق شملنا
من ذا يعارض سيدياً في أمره	حكم الزمان فلا مرد لحكمه

فلما فرغت الجارية من شعرها صرخ بها سيدها صرخة عظيمة ووقع مغشياً عليه فقالت الجارية: لا آخذك الله يا شيخ، إن لنا مدة نشرب بلا سماع مخافة على سيدنا من مثل هذه الصرعة ولكن اذهب إلى المقصورة ونم فيها فتوجهت إلى المقصورة التي أشارت إليها ونمت فيها إلى الصباح وإذا أنا بغلام أتاني ومعه كيس فيه خمسمائة دينار وقال: هذا الذي وعدك به سيدي ولكنك لا تعد إلى هذه الجارية التي أرسلتك وكأنك ما سمعت بهذا الخبر ولا سمعنا فقلت: سمعاً وطاعة.

ثم أخذت الكيس ومضيت إلى حال سبيلي وقلت في نفسي: إن الجارية في انتظاري من أمس والله لا بد أن أرجع إليها وأخبرها بما جرى بيني وبينه لأنني إن لم أعد إليها فربما تشتمني وتشتم كل من طلع من بلادي فمضيت إليها فوجدتها واقفة فلما رأني قالت: يا ابن منصور إنك ما قضيت لي حاجة، فقلت لها: من أعلمك بهذا فقالت: يا ابن منصور إن معي مكاشفة أخرى وهو أنك لما ناولته الورقة مزقتها ورمها وقال لك: يا ابن منصور مهما كان لك من الحوائج قضيناه لك إلا حاجة صاحبة هذه الورقة فإنها ليس لها عندي جواب فقامت أنت من عنده مغضباً فتعلق بأذيالك وقال: يا ابن منصور اجلس عندي اليوم فإنك ضيفي فكل واشرب وتلذذ

واطرب، وخذ لك خمسمائة دينار فجلست عنده وأكلت وشربت وتلذذت وطربت وسامرته وغنت الجارية بالصوت الفلاني والصوت الفلاني فوق معشياً عليه فقلت لها يا أمير المؤمنين: هل أنت معنا فقالت لي: يا ابن منصور أما سمعت قول الشاعر:

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون

ولكن يا ابن منصور ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلا وغيره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثانية والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت: يا ابن منصور ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلا وغيره ثم رفعت طرفها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي كما بليتني بمحبة جبير بن عمير أن تلبيه بمحبتني وأن تنقل المحبة من قلبي إلى قلبه.

ثم إنها أعطتني مائة دينار حق طريقي فأخذتها ومضيت إلى سلطان البصرة فوجدته قد جاء من الصيد فأخذت رسمي منه ورجعت إلى بغداد، فلما أقبلت السنة الثانية توجهت إلى مدينة البصرة لأطلب رسمي على عادتي ودفع السلطان إلي رسمي ولما أردت الرجوع إلى بغداد تفكرت في نفسي أمر الجارية بدور وقلت مر أمر: والله لا بد أن أذهب إليها وأنظر ما جرى بينها وبين صاحبها فجئت دارها فرأيت على بابها كنساً ورشاً وخدمًا وحشماً وغلماناً فقلت لعل الجارية طفح الهم على قلبها فماتت ونزل في دارها أمير من الأمراء فتركتها ورجعت إلى دار جبير بن عمير الشيباني فوجدت مصاطبها قد هدمت ولم أجده على باب داره وجعلت أفيض العبرات وأندبه بهذه الأبيات:

يا سادة رحلوا والقلب يتبعهم	عودوا تعد لي اعيادي بعودكم
وقفت في دراكم أنعي مساكنكم	والدمع يدفق والأجفان تلتطم
أسائل الدار والأطلال باكية	أين الذي كان منه الجود والنعم
اقصد سبيلك فالأحباب قد رحلوا	من الربوع وتحت التراب قد دموا
لا أوحش الله من رؤيا محاسنهم	طولاً ولا عرضاً ولا غابت لهم شيم

فبينما أنا أندب أهل هذه الدار بهذه الأبيات يا أمير المؤمنين وإذا بعبد أسود قد خرج إلي من الدار فقال: يا شيخ اسكت تكلتك أمك ما لي أراك ندب هذه الدار بهذه الأبيات فقلت له: إني كنت أعدها لصديق من أصدقائي فقال: وما اسمه؟ فقلت: جبير بن عمير الشيباني قال: وأي شيء جرى له الحمد لله هاهو على حاله من الغنى والسعادة والملك لكن ابتلاه بمحبة جارية يقال لها السيدة بدور وهو في محبتها مغور من شدة الوجد والتبريح فهو كالحجر الجلود والطريح فإن جاع لا يقول لهم أطعموني وإن عطش لا يقول اسقوني فقلت: استأذن لي في الدخول عليه. فقال: يا سيدي أتدخل على من لا يفهم فقلت: لا بد أن أدخل إليه على كل حال مستأذناً ثم عاد إلي أدناً فدخلت عليه فوجدته كالحجر الطريح لا يفهم بإشارة ولا بصريح وكلمته فلم يكلمني فقال لي بعض أتباعه: يا سيدي إن كنت تحفظ شيئاً من الشعر فأنشده إياه وارفع صوتك به فإنه ينتبه لذلك ويخاطبك فأنشدت هذين البيتين:

أسلوت حب بدور أم تتجلد	وسهرت ليلك أم جفونك ترقد
إن كان دمعك سائلاً مهمولة	فاعلم بأنك في الجنان مخلد

فلما سمع هذا الشعر فتح عينيه وقال: مرحباً يا ابن منصور قد صار الهزل جداً فقلت له: يا سيدي ألك بي حاجة، قال: نعم أريد أن اكتب إليها ورقة وارسلها معك فإن تأتيني بجوابها فلك علي ألف دينار وإن لم تأتيني بجوابها فلك علي حق مشيتك مائة دينار فقال له: افعل ما بدا لك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثالثة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن ابن منصور قال فقلت له: افعل ما بدا لك فنادى بعض جواريه وقال انتيني بدواة وقرطاس فأنته بما طلبه فكتب هذه الأبيات:

سألتكم بالله يا سادتي مهلاً
تمكن مني حبكم وهو اكم
لقد كنت قبل اليوم أستصغر الهوى
فلما أراني الحب أمواج بحرهِ
فإن شئتم أن ترحموني بوصلكم
علي فإن الحب لم يبق لي عقلاً
فألبسني سقماً وأورثني ذلاً
وأحسبه يا سادتي هيناً سهلاً
رجعت لحكم الله أعذر من يبلى
وإن شئتم قتلي فلا تنسوا الفضلاً

ثم ختم الكتاب وناولني إياه فأخذته ومضيت به إلى دار بدور وجعلت أرفع الستر قليلاً قليلاً على العادة وإذا بعشر جوار نهد أبقار كأنهن الأقمار والسيدة بدور جالسة في وسطهن كأنها البدر في وسط النجوم أو الشمس إذا دخلت علي الغيوم وليس بها ألم ولا وجع فبينما أنا أنظر إليها وأتعجب من هذا الحال إذ لاحظت بها التفاتة لي فرأنتي واقفاً بالباب فقالت لي: أهلاً وسهلاً بك يا ابن منصور ادخل فدخلت وسلمت عليها وناولتها الورقة فلما قرأتها وفهمت ما فيها ضحكت وقالت يا ابن منصور ما كذب الشاعر حيث قال:

فلأصبرن على هواك تجلداً
حتى يجيء إلي منك رسول

يا ابن منصور هأنذا أكتب لك جواباً حتى يعطيك الذي وعدك به فقلت لها: جزاك الله خيراً فنادت بعض جوراها وقالت: أتيني بدواة وقرطاس فلما أتتها بما طلبت كتبت إليه هذه الأبيات:

ما لي وفيت بعهدكم فغدرتم
باديتموني بالقطيعة والجفا
ما زلت أحفظ في البرية عهدكم
حتى رأيت بناظري ما ساءني
أيهون قدري حين أرفع قدركم
فلأصرفن القلب عنكم سلوة
ورأيتموني منصفاً فظلمتم
وغدرتم والغدر باد منكم
وأصون عرضكم وأحلف عنكم
وسمعت أخبار القبايح عنكم
والله لو أكرمتم لكرمتم
ولأنفضن يدي يأساً منكم

فقلت لها: والله يا سيدتي أنه ما يقرأ هذه الأبيات إلا وتفارق روحه من جسده فقالت لي: يا ابن منصور بلغ بي الوجد إلى ها الحد حتى قلت ما قلت فقلت لها: لو قلت أكثر من ذلك الحق لك ولكن العفو من شيم الكرام فلما سمعت كلامي تغرغرت عيناها بالدموع وكتبت إليه رقعة يا أمير المؤمنين ما في ديوانك من يحسن أن يكتب مثلها وكتبت فيها هذه الأبيات:

إلى كم ذا الدلال وذا التجني
لعلي قد أسأت ولست أدري
مرادي لو وضعتك يا حبيبي
شربت كؤوس حبك مترعات
شفيت وحقك الحساد مني
فقل لي ما الذي بلغت عني
مكان النوم من عيني وجفني
فإن تراني سكرت فلا تلمني

فلما فرغت من كتابة المكتوب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الرابعة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن بدور لما فرغت من كتابة المكتوب وختمته ناولتني إياه فقلت لها: يا سيدتي إن هذه الرقعة تدأوي العليل وتشفي الغليل ثم أخذت المكتوب فنادتني بعدما خرجت من عندها وقالت لي: يا ابن منصور قل له: إنها في هذه الليلة ضيفتك ففرحت أنا بذلك ومضيت بالكتاب إلى جبير بن عمير. فلما دخلت عليه وجدت عينه شاخصة إلى الباب ينتظر الجواب، فلما ناولته الورقة فتحها وقرأها وفهم معناها فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق قال: يا ابن منصور هل كتبت هذه الرقعة بيدها ولمستها بأناملها قلت: يا سيدي وهل الناس يكتبون بأرجلهم فوالله يا أمير المؤمنين ما استتمت كلامي أنا وإياه إلا وقد سمعنا شن خلاخلها في الدهليز وهي داخلة، فلما رآها قام على أقدامه كأنه لم يكن به ألم قط وعانقها عنق اللام للألف وزالت عنه علته التي لا تنصرف.

ثم جلس ولم تجلس هي فقلت لها: يا سيدتي لأي شيء لم تجلسي، قالت: يا ابن منصور لا أجلس إلا بالشرط

الذي بيننا فقلت لها: وما ذلك الشرط الذي بينكما قالت: إن العشاق لا يطلع أحد على أسرارهم، ثم وضعت فمها على أذنه وقالت له كلاماً سراً فقال: سمعاً وطاعة، ثم قام جببر ووشوش بعض عبيده فغاب العبد ساعة ثم أتى ومعه قاض وشاهدان فقام جببر وأتى بكيس فيه مائة ألف دينار وقال: أيها القاضي اعقد عقدي على هذه الصببية بهذا المبلغ.

فقال لها القاضي: قولتي رضييت بذلك فقالت: رضييت بذلك، فعدوا العقد ثم فتجت الكيس وملأت يدها منه وأعطت القاضي والشهود ثم ناولته بقية الكيس فانصرف القاضي والشهود وقعدت أنا وإياها في بسط وانشراح إلى أن مضى من الليل أكثره فقلت في نفسي إنهما عاشقان مضت عليهما مدة من الزمان وهما متهاجران، فأنا أقوم في هذه الساعة لأنام في مكان بعيد عنهما وأتركهما يختليان ببعضهما، ثم قمت فتعلقت بأذيالي وقالت: ما الذي حدثت بك به؟ فقلت ما هو كذا وكذا فقالت: اجلس فإذا أردنا انصرافك صرفناك فجلست معهما إلى أن قرب الصبح فقالت: يا ابن منصور امض إلى تلك المقصورة لأننا فرشناها لك وهي محل نومك فقامت ونمت إلى الصباح فلما أصبحت جاءني غلام بطشت وإبريق فتوضأت وصليت الصبح ثم جلست فيبينما أنا جالس وإذا بجببر ومحبوبته خرجا من حمام الدار وكل منهما يعصر ذوائبه فصبحت عليهما وهنيتهما بالسلامة وجمع الشمل، ثم قلت له: الذي أوله شرط آخره رضا فقال لي: صدقت وقد وجب لك الإكرام، ثم نادى خازن داره وقال له انتني بثلاثة آلاف دينار فاتاه بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار. فقال لي: تفضل علينا بقبول فقلت له: لا أقبله حتى تحكي سبب انتقال المحبة منها إليك بعد ذلك الصد العظيم قال: سمعاً وطاعة اعلم أن عندنا عيداً يقال له عيد النواريز، يخرج الناس فيه وينزلون في الزورق ويتفرجون في البحر فخرجت أتفرج أنا وأصحابي فرأيت زورقاً فيه عشر جوار كأنهن الأقمار والسيدة بدور وعودها معها فضربت عليه إحدى عشر طريقة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأنشدت هذين البيتين:

النار أبرد من نيران أحشائي
والصخر أليم من قلبي لمولاتي
إني لأعجب من تألف خلقته
قلب من الصخر في جسم من الماء

فقلت لها: أعيدي البيتين والطريقة فما رضييت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن جببر قال لها: أعيدي البيتين فما رضييت فأمرت التونية أن يرموها فرجموها بالنارنج حتى خشبت الغرق على الزورق الذي هي فيه ثم مضت إلى حال سبيلها وهذا سبب انتقال المحبة من قلبها إلى قلبي فهنأتها بجمع الشمل وأخذت الكيس بما فيه وتوجهت إلى بغداد. فانشرح صدر الخليفة وزال عنه ما كان يجده من الأرق وضيق الصدر.